قلاقل لا سبيل إلى محْوِها. وفي كل مرّة كان يبدأ فيها الكلام كان يظهر بعض المستفزّين باحثين عن المتاعب، مُتَفَنِّنين في جعله يتلفّظ بأشدّ العبارات تحريضاً. ولم يكن هو نفسه يكره الاستفزاز، فقد كان جزءاً من الأدوات التي كان يستخدمها، وعلى الرغم من أنه كان يُحسِن إبقاءه في بعض الأحيان في حالة خَدَر، ويلطّف من انتقاداته، ويُغضي عن بعض الكلمات التي قد تزرع الفُرقة، فإنه ما إن كان يُسأل بشيء من الإلحاح حتى يجيب مهما تكن مقاصد السائل. وسواء تعلّق الأمر بذهنيّة العِرق، أو بالفوارق بين الطبقات، أو بطقوس الكهنة، أو بالربوبيّات التي اعتراها الحسد، فإنه كان يتكلّم باستقامة ومن غير مَلَق! وإذا حدث أن أخذ الاجتماع بالانحلال فإنه كان يكتفي بهزّ كتفيه وهو يقول:

ـ إنها تفسُّخات بَشَرة العالم القديمة! ولسوف أبدأ بالقلق عندما تغدو أقوالي في آذان الناس أنْعَمَ من ريش وسادة.

كانت مثل هذه التفسيرات توجّه في العادة إلى «ديناغ». فقد غدت مذّاك الكائن المقرَّب. وعندما كان «ماني» يتمدّد عند جذع الشجرة لدى زوال النهار، أو تحت سقف أحد المؤمنين حين ترغمه رداءة الأحوال الجويّة على ذلك، فإن «ديناغ» لم تكن قطّ بعيدة. وكان في وسع كل شخص من أشخاص الموكب أن يلاحظ الرعاية المتّقدة التي كانت رفيقته تحيطه بها، وكان كل أحد يخمّن المكانة الخاصة التي تحتلّها، على الرغم من أن أحداً لم يعلم علم اليقين ماذا غدا كلٌّ منهما بالنسبة إلى الآخر، ولا بأية كلمات أو بأيّ عينيْن أو بأية صداقة كانا يتلفّعان عندما يكونان وحدهما.

وعلى أي حال فمن ذا الذي يجسر على السؤال عن ذلك؟ وحاول «پاتيغ» ذات يوم أن يطرق الموضوع. بمواربة وحيطة.

ـ ليُباركْك الله يا بنيّ، ليُباركِ اليوم الذي دفعتني فيه «العناية» إلى اقتفاء أثرك. إن قلبي ليملأه الفرح في كلّ مرة اسمع الناس يذكرون فيها فضائلك وحياتك الزاهدة وما تفرضه من حرمان على جسدك الفتيّ.